الإنسان والموت

محمد يشوتي

كلية الآداب. وجدة

ما الإنسان ؟ ما الموت ؟ كيف ينظر الإنسان للموت، كيف يتصوره، كيف يواجهه؟ بل لماذا نموت أصلا؟

بداية أقول: لا توجد ثقافة - حسب الدراسات الأنتربولوجية - لا ترى أن الخلود هو الأصل وأن الموت لم يكن في البدء، بل هو أمر حادث طرأ إثر خطأ ما. ففي أغلب الثقافات يُعرض ظهور الموت كحادث سيء طرأ في البدايات، حيث يُعَد نتيجة لواقعة ما طرأت في الأزمنة الأولى، فالموت لم يكن معروفا لدى الأوائل أي لدى الأجداد. وبمعرفة الكيفية التي حدث بها لأول مرة في الكون يُدرك الإنسان في ذات الوقت سبب موته هو نفسه. إننا نموت لأن هذا الشيء أو ذاك حدث في البدايات. فمهما تعددت تفاصيل الأسطورة عن أصل الموت [أول موت حدث في الزمان]، فإن هذه الأسطورة تمنح الإنسان التفسير لموته الخاص.

فأغلب الأساطير في المجتمعات العتيقة تفسر الموت باعتباره حادثا تافها أو نتيجة اختيار غبي قام به الأسلاف الأوائل. فمن بين النوادر الطريفة والشائعة على الخصوص في إفريقيا أن الله أرسل إلى الأجداد الحرباء حاملة معها رسالة الخلود، وبعث العظاية حاملة معها رسالة الموت، لكن الحرباء تأخرت في الطريق فكان السبق للعظاية في تبليغ رسالتها فنتج عن ذلك حدوث الموت في العالم. يرى ميرسي إلياد في هذه الأسطورة تصويرا لعبثية الموت (العبثية الساخرة). فمثل هذه الأساطير تفترض كما يقول [وجود] تيولوجيا الكلمة معدة بإحكام. فالله لم يكن بإمكانه تغيير قضائه لسبب بسيط ذلك أنه بمجرد التلفظ بالكلمات، كانت هذه الأخيرة قد أوجدت الواقع (1) .

من بين الأساطير التي ترجع ظهور الموت إلى تصرف غبي للأجداد االأسطوريين نذكر واحدة ميلانيزية وأخرى أندونيسية. جاء في الأولى أن الأسلاف الأوائل كانوا كلما تقدموا في السن، استعادوا شبابهم وذلك بارتدائهم جلدا جديدا كالثعابين. ولكن وقع أن عجوزا لما عادت إلى بيتها بعد

أن استعادت شبابها، بدت غريبة على ابنها إذ أنه لم يستطع التعرف عليها، ولتهدئته ارتدت جلدها القديم. ومنذ ذلك الحين، أصبح الإنسان كائنا فان. أما في الأسطورة الأندونيسية، فكانت السماء في البدء قريبة من الأرض وكان الخالق متعودا على إنزال هدايا إلى البشر مشدودة عبر طَرَف حَبْل، وذات يوم أَنزل حجرة بدل الهدية. فلم يستسغ الأجداد ذلك حيث توجهوا إلى خالقهم محتجين أن لا حاجة لهم بهذه الحجرة ومطالبين بشيء آخر". فلبى الإله طلبهم إذ بعد أيام أنزل عليهم موزة سُر الناس بها. حينئذ بَلَغَ الأجدادَ صوت من السماء يقول: بما أنكم اخترتم الموزة، فإن حياتكم ستكون كحياتها، ذلك أن شجرة الموز عندما تنتج فَسيلَتَها فإن الأصل الحامل يموت، كذلك تموتون ويأخذ الأبناء مكانكم. لو أنكم كنتم قد اخترتم الحجرة لكانت حياتكم كحياة الحجرة، أي ثابتة وخالدة (2).

إن هذه الأسطورة الأندونيسية تُصور بدقة جدليةَ الحياة والموت. فالحجرة ترمز إلى المناعة والأبدية، وبالتالي إلى استمرارية لا نهائية في الوجود. إلا أن الحجرة هي في نفس الوقت رمز للعتامة والسكون والجمود. في حين أن الحياة بصفة عامة والطبيعة البشرية بصفة خاصة تتميزان بالإبداع والحرية. وهكذا يصبح الموت أحد مكونات الطبيعة البشرية، ذلك لأن تجربة الموت هي التي تجعل من فكرة الروح والكائنات الروحانية فكرة معقولة. ومجمل القول، إنه مهما كان السبب في حدوث أول موت، فإن الإنسان باعتباره كائنا واعيا بموته، ومن حيث هو كذلك فقط، استطاع أن يؤول إلى ما هو عليه الآن وأن يحقق مصيره النوعي(3).

فما الموت وما الإنسان وما علا قة هذا بذاك؟

الموت ظاهرة بيولوجية (طبيعية) كالولادة والبلوغ والشيخوخة تحدث نتيجة لبرنامج نمو ، وظيفته وضع حد لهذا البرنامج. وهو ضرورة حياتية ، بمعنى أنه نتيجة حتمية لكل كائن حي. فأينما كانت الحياة يكون الموت، والذي لا يموت لايمكن له أن يحيا. فالموت شرط الحياة وفي نفس الوقت نفي لها. هذا النفي الإيجابي وظيفته الحد وهوحد يمنح شكلا لما يحد. وكما يقول جانكليفيتش: اللاوجود يترأس préside تشكيل وتأسيس الوجود، فالكائن الحي ليس حيا إلا لكونه فَان ذلك أن الموت شرط الحياة وضرورتها وأن من لا يموت لا يعيش. صحيح أن الحجر لا يموت ولكن حياة الحجر الأبدية هذه هي في نفس الوقت موتها الأبدي لأنه ليس من حي إلا من كان معرضا بالضرورة للموت (4)، وتبقى أسئلة الأين والكيف والمتى معلقة "وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير" (سورة لقمان، آية 34).

ما الإنسان؟

كل التعاريف التي تخص الإنسان مهما كان مصدرها ترتكز في تعريفها له على ما يميزه عن الحيوان. لم يكف المفكرون فلاسفة وأنتربولوجيون وغيرهم عن التساؤل عما يمكن أن يحدد خصوصية الكائن البشري: الروح، اللغة، قدرته على إنتاج الأدوات والأسلحة، الوقفة العمودية، الزواج المحرم، فهو ناطق، ضاحك، مفكر، متدين، هو باختصار كائن عاقل، تتمظهر عقليته في ما عرفه من تطور على المستويين العمودي والأفقي. هذا التطور الذي جعل منه كائنا تجاوز مجال الطبيعة (مجال المعطى) إلى مجال الثقافة (مجال المكتسب). فالإنسان هو الكائن الثقافي.

يرى عالم الأنتروبولوجيا كلود ليفي شتراوس أن الحدث أو الظاهرة التي جعلت أو شهدت خروج الإنسان من مجال الطبيعة إلى مجال الثقافة هي الزواج المحرم إذ يرى فيه أساس نشوء المجتمع الإنساني ذلك أنه عندما تُزوج الفتاة خارج العائلة أو القبيلة فإن ذلك يؤدي إلى قيام علاقات مصاهرة قد تكون أولى العلاقات الإجتماعية التي يتم فيها استعاضة نظام علاقات دموية ذات أساس بيولوجي بنظام قرابة سوسيولوجي(5) .ويرى بعض الدارسين أن تجاوز الإنسان لمجال الطبيعة إلى مجال الثقافة يتجلى في الوعي بالموت وهذا هو معيار تَمَيزه عن الحيوان. وتعبر عن ذلك التجاوز المصاحبات الثقافية التي يرافق بها موتاه، وهي مصاحبات ليست من الطبيعة في شيء لأن الإنسان هو الوحيد من بين الكائنات الحية الذي يولي الإهتمام للموتى ويرافقهم بطقوس هي في نهاية الأمر تجليات لسلوك ثقافي. الموت يتحول بفعل الإنسان من كونه ظاهرة طبيعية إلى ظاهرة ثقافية.

الموت حقيقة أو واقع بيولوجي يترك بقايا تتمثل في "الجثة " فهو يحول الجسم إلى جثة ومن خلال ذلك يتحول هو ذاته إلى فعل ثقافي من خلال التمثلات التي يكون مصدرا لها حول طبيعته وأصله والتخيلات والتصورات التي يوحي بها والوسائل الموضوعة والمهيأة لقبوله أورفضه أوتجاوزه. وتدخل الطقوس الجنائزية الناجمة عن هذه الحقيقة البيولوجية ضمن الممارسات الإنسانية، أي أنها تخص الإنسان وحده. هذه الطقوس تستمد قيمتها الوجودية من وظيفتها باعتبارها تستجيب لضرورة كونية، ضرورة الأزمة التي يخلقها "الغياب"المنتظر - لكن غير المرغوب فيه - داخل الأسرة أوالعائلة أو القرية وربما داخل المجتمع ككل.

إن الموت يحدث دائما. منذ أن وجد الناس وهم يموتون، وكل يوم يموت الناس، ومع ذلك لم يستطع الإنسان التعود على هذه الظاهرة الطبيعية و لم يأنسها، فهو يصاب بالحيرة والذهول كلما مات أحد الأحياء وكأن الأمر يحدث دائما لأول مرة، وكل مرة يثير في الحاضرين الفزع والقلق

والفضول. هذه الحالات الشعورية يثيرها الوعي بحتمية الموت لأن في موت الآخر موتا لي فأنا ميت بالقوة :لا أدري متى وكيف، لكنني مسافر لا ريب. "كل نفس ذائقة الموت" (سورة العنكبوت آية 57). يقول زيكلر : لقد قرأت كتبا عديدة عن الموت، قرأت "الموت" لجانكلفيتش، و"عودة التراجيدي" للاندسبورغ، و"الإنسان والموت" لموران، لكن هذه الكتب وهذه القراءات لم تبعد عني قلق الموت ذلك أنني ككل كائن حي أظل مسكونا برهبة الموت ويظل رعب الموت يسكنني (6).

الوعي بالموت هو ما يميز الإنسان عن باقي الكائنات الحية. ولذلك تجليات عديدة سوف أميز فيها بين مستويين. المستوى الأول يتعلق بالقراءات الفكرية للموت المتمثلة في التأمل الفلسفي للظاهرة. ويخص المستوى الثاني تصور الموت من خلال الممارسات الطقوسية لأن لهذه الأخيرة وظيفة ما وإلا ما كان لوجودها معنى أو مبرر. يختلف المستويان حيث يجعل الأول من الموت موضوع تفكير وتأمل ويعبر عن موقف في حين يتعامل المستوى الثاني مع الموت كحدث، كواقع معيش يستدعي التدخل لمواجهته. وفي المستويين معا تعبير عن القلق.

إن التأمل الفلسفي في الموت هو في الأساس محاولة للتصالح مع الذات القلقة من نهايتها ومن "المابعد" فقلق الموت ثابت مشترك في كل الفلسفات حتىفي تلك التي نشم فيها رائحة الإلحاد لأن الكينونة المحدودة في الزمان فعل ثابت لا استثناء فيه. يبقى الإختلاف في تمثله وطرق مواجهته. فهو بالنسبة لسقراط إما أن يكون نوما بلا أحلام أو هجرة إلى عالم أخر وفي كلتا الحالتين لا حاجة للخوف منه ذلك أنه في حالة كونه نوما لا تتخلله أحلام سوف يكون كسبا وإذا كان رحلة إلى عالم آخر فلا شيء أعظم من هذا. وقد برهن على قناعته بفكرته عن الموت، ذلك أنه قبل الحكم عليه بعقوبة الموت رغم أنه كان بوسعه أن يهرَب من السجن. فهو رغم نصح البعض له بالفرار أبى واختار الموت لأنه بهذا السلوك يمكنه إقناع أتباعه بأن الموت لا ينبغي أن يكون موضع خوف(7).

صحيح أن كثيرا من الدارسين يرجعون شجاعة سقراط في مواجهة الموت إلى المواقف اللا أدرية حول ما بعد الموت، لكنه في محاورة الدفاع يبدو مؤمنا بوجود الآلهة ووجود ما في "المابعد". إلا أن العنصر الآخر الكامن وراء شجاعته أمام الموت هو أنه أثناء صدور الحكم عليه، كان قد بلغ السبعين من عمره وأن الإنسان إذا ما بلغ مثل هذا السن فعليه -يقول سقراط - "ألا يجزع من اقتراب الموت" (8). وهذا العنصر الذي يعتبر ثانويا في تصوير أفلاطون لسقراط نراه أساسيا في رواية كسينوفون، فسقراط قبل الموت لأنه يسمح له بتجنب ضروب العجز والبؤس المرتبطة بالشيخوخة إذ وصل إلى النتيجة التالية هي: أن الموت بالنسبة إليه أمر مرغوب فيه أكثر من الحياة. ويؤكد ذلك حين

يقول على لسان سقراط في دفاعه أمام المحلفين:" ألا تعلمون بأني سأرفض الإقرار بأن هناك إنسانا قد عاش حياة خيرا من تلك التي عشتها حتى الآن؟ ذلك أني قد أدركت أن حياتي بأسرها قد أُنفقت في تقوى الله والتزام الخير حول الإنسان، وهي حقيقة تمنحني أعظم الرضا، ولذا فإني أشعر باحترام عميق للذات، وقد اكتشفت أن رفاقي يشعرون بمشاعر مماثلة تجاهي، ولكن الآن وإذا امتدت سنوات عمري، فإن ضروب ضعف الشيخوخة ستتحقق بصورة حتمية...وربما وقف الرب برحمته إلى جواري فأتاح لي فرصة إنهاء حياتي لا في أوانها فحسب، وإنما بالطريقة الأكثر يسرا كذلك" (9). فهو يشعر بسعادة لأنه يموت وهو لايزال يتمتع بجسم سليم. وينهي سقراط حججه حسب كسينوفون بتأكيد المؤكد:" ألا تعلمون أن الطبيعة حكمت علي بالموت منذ لحظة ميلادي؟" (10).

لسقراط أمثال في تاريخ الفكر الفلسفي العربي ليس من حيث الرؤية الفلسفية لكن من حيث الموقف من الموت كما هو الشأن بالنسبة للحلاج الذي أبدى شجاعة أمام الموت لأنه كان يرى فيه الحياة الحقة وأن الموت الحق هو هذه الحياة التي نحياها، فالموت خلاص من واقع مرفوض. وَرَدَ عن الحلاج قوله وهو يواجه قتلته:

أقتلوني ياتقاتي
إن في موتي حياتي
وفي حياتي مماتي

فكرة الموت والموقف منه تبدو أكثر إثارة في الفلسفة الأبيقورية (نسبة لأبيقور)، فالموت عنده ليس شيئا، وليس هذا فحسب بل لا يهم الإنسان في شيء. لا يهمنا كأحياء لأنه لا وجود له ولا يهمنا كأموات لأننا لسنا موجودين. فما دمنا موجودين يبقى الموت غير موجود وعندما يحل الموت فنحن الذين لا نكون موجودين. فوجودنا غياب له وحضوره غياب لنا.وهو ليس أكثر من حادث بسيط لا يدوم أكثر من لحظة. يثير فينا الخوف أكثر مما نشعر فيه بالألم . فنحن نخشى الموت ليس لأنه سيكون مُؤلما إنما لأن توقعه أمر مؤلم. فالموت غياب للإحساس ومن لم يعد يحس لم يعد موجودا. فبعد الموت كل شيء ينتهي حتى الموت ذاته. مَن الداعي إذن إلى الخوف من الموت؟ يقول إدغار موران محللا فلسفة أبيقور في الموت إن الأبيقرية تحالف بين الأنا (الفرد)، والهو (الغريزة والرغبة في الحياة، والأنا الأعلى (النظام الكوني الذري) (11). فالموت لا وجود له لأن الإدراك نفاه وينفيه الوجود فوجَب إذنَ نبذ وتجاهل فكرة الموت.

هذا التصور الأبقوري للموت يرتكز على الرغبة في الحياة، فهو يعيد الإعتبار للحياة،للوجود من أجل الحط من قيمة الموت واحتقاره عكسَ من يحتقر الحياة لأن الموت موجود. فبالنسبة لأبقور، حقيرٌ وأحمق من تتلخص لديه كل صفات الحياة (الدنيا) في كلمات تبسيطية ضعيفة مثل :" آخرها موت".

ونجد هذه الأفكار لدى فلاسفة محدثين أشير باختصار شديد إلى بعض منها، ففيورباخ مثلا يرى أن الموت شبح وهم هو خيمر une chimère بحيث لا يمكن أن يوجد إلا في عدمه. فوجوده هو عدمه. الموت يحل ذاته بذاته. ويعبر عن ذلك في قوله " الموت هو موت الموت. فهو أقل من اللاشيء خيفة إذا كان هناك ما هو أقل من اللاشيء(12). و عند سارتر الموت ليس هو الذي يمنح الحياة معناها كما يُعتقد بل هو الذي يجردها من كل معنى فهو النفي الدائم لإمكاناتي. فلو أن الموت ضرب بالزاك قبل أن يكتب les chouans ما كان لهذا الأخير أن يكون غير كاتب مسلسلات ضعيف مجهول.

كل هذه المحاولات للتأقلم مع الموت تنم في الحقيقة عن قلق رغم ما يبدو فيها من تحديات. هذه التأملات الفلسفية هي مظهر من مظاهر الثقافة الإنسانية يعبر فيها معرفيا عن تصور وموقف من قضية يمكن القول إنها وراء كل مظاهر الخلق والإبداع. فكل هذا الخلق والإبداع الذي عرفه الإنسان منذ أقدم العصور ولا زال ليس شيئا آخر غير الرغبة في الحياة وليست إنتاجاته إلا مقاومة للموت. فمن مظاهر الثقافة الإنسانية أنه جعل منها موضوع تفكير. ومن مظاهر الثقافة الإنسانية أيضا أنه جعل من الميت موضوع رعاية وعناية، تعبرعن ذلك أشكال السلوك التي يقوم بها الإنسان اتجاه موتاه والمتمثلة في الطقوس الجنائزية، وهي طقوس تعكس تصورا معينا للموت. وهذا ينقلني إلى الحديث عن المستوى الثاني، أي مستوى التصور من خلال ما يُمارَس من طقوس.

لا يوجد تجمع بشري مهما كان بدائيا لا يهتم بموتاه ولا يحيطهم بطقوس. فالدراسات الأنتروبولوجية تُظهر لنا أن الأموات كانوا دائما موضوع ممارسات تتعلق جميعها بالإعتقاد في حياة أخرى خاصة بهم، أي بالأموات. فأول آثار هندسة المعمار البشرية كان القبر.وللقبر دلالاته، وأولى دلالاته أنه مسكن يحيل علىساكنه. يكتب إدغار موران عن الأنتقال من مرحلة الطبيعة إلى مرحلة الثقافة أن القبر يمثل جواز المرور. إنه دليل على أن الإنسان بدأ يدفن موتاه وهذا سلوك يشير إلى أن الأمر لم يعد غريزة بل إنه دال على فجر تفكير بشري يترجم نوعا من الثورة على الموت. إن المعطى الأول والأساس والكوني للموت "الإنساني" هو القبر. فالجثة أثارت انفعالات تُرجمت إلى ممارسات جنائزية، وهذا الإعتناء بالجثة يعني تمديدا للحياة وعدم التخلي عن الأموات يعني استمرارهم في الحياة.

فهو شكل من أشكال اللاموت والذي يرى فيه الأنتربولوجيون والإتنولوجيون معتقدا كونيا ويرى فيه فرايزر امتدادا للحياة لمدة غير محددة ولكن ليس بالضرورة خالدة لأن الخلود مفهوم مجرد ومتأخر. ولعل المهم في كل هذا هو أن الممارسات وأنواع السلوك المختلفة اتجاه الجثة والإعتقاد في حياة خاصة بالأموات تبدو بالنسبة لمعرفتنا كظواهر إنسانية أولى في نفس درجة الأداة (l'outil). فالموت شكل من أشكال الحياة الذي يمدد بشكل أو بآخر حياة الفرد. (إن الموت من هذا المنظور ليس "فكرة" إنما "صورة" أو "تصور"). فالموت كمفهوم لا وجود له في لغة بعض التجمعات البشرية " البدائية" إنما يتم الحديث عنه كما لو أنه نوم أو سفر أو ولادة أو حادث أو مكروه أو دخول في مثوى الأسلاف أو عن كل هذا في نفس الوقت بل وفي غالب الأوقات. هناك رفض للموت كنهاية وفي نفس الوقت اعتراف به كحدث، كواقع(13).

الموت يقلق، يخيف لأنه يحدث خللا في الذات الفردية والجماعية. يحدث ارتباكا في الوعي. هذا الخلل وهذا الإرتباك تثيرهما حالة الجثة: مصيرها المفجع المتمثل في التحلل والفساد بتعبير الفلاسفة. عن هذا المصير المفجع تنجم كل الممارسات التي يلجأ إليها الإنسان منذ ما قبل التاريخ للإسراع بهذا التحلل وذلك بحرقه أو أكله (l'endo-cannibalisme)، أو لتفاديه (التحنيط)، أو إبعاده (وذلك بنقله بعيدا أو فرار الأحياء منه). فنجاسة الجسد المتحلل تكمن وراء المعالجة الجنائزية للجثة. تشير الدراسات الأنتربولوجية إلى أن بعض تصرفات الإنسات إزاء موتاه تدل فعلا على شكل من أشكال الإعتقاد في ما يُحدثه الميت من عدوى في الأحياء. وعلى هذا الأساس تقوم بعض التجمعات البشرية لدى بعض القبائل بمغادرة الحي لعدة شهور إثر موت أحدهم، ويتركون وراءهم علامات يخبرون بها الأجانب الذين لا علم لهم بالوفاة حتى لايتعرضوا للشرور المفترضة، ولا يعودون إلا بعد أن تكون الجثة قد تحولت إلى هيكل عظمي لا أثر فيه لما يَفسُد، حينئذ فقط يقيمون حفل نهاية المأتم.(فاللاموت لا يرتكز على تجاهل الواقع البيولوجي بل بالإعتراف بهذا الواقع: المأتم دليل هذا الإعتراف) (14).

لا يوجد مجتمع لا يرتكز على رهان اللاموت، وما نسميه ثقافة ليس شيئا آخر غير مجموعة منظمة من القيم والبنيات التي يخترعها المجتمع ليؤكد ذاته رغم الموت وضدا إلى الموت. إن الطقوس تهدف إلى إعادة ترميم ما أحدثه الموت من خلخلة واضطراب في الجسم، ليس فقط الجسم الذي أصبح جثة بل جسم المجتمع ككل لأن هذا الأخير يُضرب في كينونته، في وجوده من خلال فقدان عنصر منه، فهي تهدف إلى إعادة التوازن وإعادة الحياة للجماعة.

1) M/ ELIADE; Sorcellerie et modes culturelles, traduit de l'Anglais par J. MALAQUAIS, ed. Gallimard, Paris 1978.
يجد القارئ ترجمة الفصل المتعلق ب"ميثولوجيا الموت" ضمن: مقالات في الأسطورة ، ترجمة محمد يشوتي. مطبعة الجسور، وجدة 1998 ، ص2144-.
2) نفس المرجع، ص.2325-24-
3) نفس المرجع، ص.2325-24-
4) V. JANKELEVITCH; La mort, ed. Flammarion, Paris 1977; p. 449
5) C. LEVI-STRAUSS. Anthropolpgie structurale, ed. plon, Paris 1958, Tom 2; p68
6) M. FROMAGET; « L'observation et la signification de l'évolution des rites funéraires occidentaux »; in Buletin de la société de thanatologie; n°:26.
يراجع أيضا محمد يشوتي، Les préparatifs du mort: le rite et sa fonction, in Revue Kananich, publication de la faculté des lettres , Oujda, n°: 2 Année 2000. p.p. 39-53.
7) J. ZIEGLER; Les vivants et la mort, ed. Seuil. Paris 1975; p. 10
8) J. CHORON; الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، أبريل 1948 ص. 4849-
9) المرجع نفسه، ص.50
10) المرجع نفسه، ص. 50
11) E. MORIN; L'homme et la mort; ed. Seuil.,Paris 1970, p.291
12) المرجع نفسه ص.272273-
13) عن E. MORIN; المرجع نفسه، ص.320
14) المرجع نفسه.